عشوائِيّة (زهرةُ العشوائيّات)

رباب خليل - مصر

المنطقةُ العشوائية هي منطقةٌ سكنيةٌ غير منظّمة بنيت في الغالب بدون ترخيص وقد تفتقرُ لأبسط مقومات الحياة الكريمة. كما تسمى في مصر "إسكان العشش".

وفي كل مكان في العالم يوجد ما يسمى بالعشوائيّات، وسكان هذه العشوائيات صوّرتهم السينما والروايات كثيرًا ولكنها أظهرت صورةً غير حقيقيةٍ ظالمةً كثيرا لأهل هذه العشوائيات ولذلك فبطلةُ قصتي عشوائية من سكان العشوائيات.. تعالوا لنرى حكايتها فهي حكاية غير تقليديةٍ صورةٍ مختلفةٍ كما أراها أنا بقلمي..

فى واحدة من العشوائيات كانت نشأة (زهرة) على هامش الحياة، مجتمع آخر لا يعيش حياةً آدمية له قوانينه التي تحكمه، وإحقاقًا للحق هذا العالم مَجْنٍ عليه مهما طالنا منه من أذى! ..

ذلك لأنّنا أسقطناه من حساباتنا؛ إنها حياةٌ مهما حاولنا تخيّلها لن نصل إلى بشاعة واقعها؛ هم أناس راضون بحياتهم، وحتى أبسط أحلامهم وهو إلحاق

أطفالهم بالمدارس الحكومية يعتبر من الكماليات و (زهرة) كانت من الأطفال الذين التحقوا بمدرسة الحكومة؛ فزهرة ابنة (متولي) التَّبَّاع و (كريمة) بائعة الخضار!

وهى طفلةٌ مثل بقية الأطفال كانت تحلُم بأن ترتدي فستان وحذاءً جديدًا في العيد، ولكنها تستيقظُ على الواقع القاتل فهي ترتدي ملابس مرقّعة وحذاء ممزقًا كحالها فتستيقظُ لتذهب إلى المدرسة ولكنّها لن تذهب إلا بشرط هو أن تعمل؛ فتعمل ببيع المناديل وتعطي (متولي) المال، فكان عليها أن تقاتل لتنجوَ من هذا المستنقع وتتحرّر من أسر واقعٍ مرعبٍ سيقضي عليها إن لم تقاومه! ... كان عليها أن تتعلم لأنها أدركت أن نجاتها في التعليم ، وكانت تقول لوالديها: "سأصبح مدرّسة ووقتها سأنقذكم من هنا وسنعيش مثل الناس" ..

هذه الجملة لخّصت حلم (زهرة) أن تعيش مثل الناس لأنّها فعلًا لا تعيش مثل الناس وإنّما تعيش مثل الحيوان إن لم يكن الحيوان أحسن منها حالًا وبعد مرور سنوات لم يتغيّر شيءٌ سوى أن (زهرة) وصلتْ للمرحلة الثانوية وكما كانت منذ صغرها تعمل، ظَلَّتْ على هذا الحال فكانت تعمل كبائعة في المحلات!

وكانت تريد أن تكمل مشوارها ولكن الأب وبيئتها لم يتقبّلا فكرة المعلمة تلك فأراد والدُها أن يزوّجها من هجّامٍ يُدعى (فتحي) فردت (زهرة) قائلةً: "يابا حرام عليك؛ أنا قطعت مشوار طويل وخلاص هانت! إنت هتجوّزني هجّام؟!".

فأجابها: "اخرسي! مفيش كلّية، وهتتجوّزي (فتحي) وكتب كتابك بعد أسبوع خلص الكلام!".

هكذا وبمنتهى البساطة ينتهي كلّ شيء؟ فالموت أهون من هذه الحياةِ البائسة!

وبعد مرور أسبوع.. في بيت (زهرة) يجهّزون العروس لفرحها.. الجميع في سعادة إلا العروس كأنّها تمثالٌ خشبيّ بلا روح!!

الأم: "يا الله يا بنتي؛ استهدي بالله، قومي معايا ألبّسك".

نهضت مع والدتِها وكأنها تساقُ إلى الموت ثم استسلمت في سكون.. وَدَعَتْ (الله) بقلب مقهورٍ أن يخلصها من هذا المصير.. وضع الأب يده في يد الزوج المنتَظَروقبل أن يقول المأذون: بسم الله و.. .....

فوجئ الجميعُ بسيارة شرطة تقفُ أمامهم ليأخذوا الهجام فتحي؛ ينزل منها ضابط: فتحي:.
"في ايه يا باشا؟".

متولي والمعازيم: "ليه كدا بس ده فرح بنتي؛ حرام يا باشا ضيّعت فرحتنا".
الضابط لمتولي: "احمد ربنا أنّ الفرح مَتَمِّش؛ بنتك جوّزها واحد يستاهلها؛ مش تجوزها لهجّام مسجَّل؟".

(زهرة) حمدت (الله) الذي أنقذها من هذا المصير، واستجاب دعاءها!
وأصرّت (زهرة) أن تكمل دراستَها في الجامعة، وتعهّدت لأسرتِها بأنّها لن تكلِّفهم قرشًا وأنّها ستساعدهم في المعيشة، وبعد جدالٍ طال وافق الأب!
وفي أوّل يومٍ في الجامعة صدمتها مظاهرُ الحياة؛ فمجتمع الجامعة والمظاهر الاجتماعية تفوق تخيُّلَها وهي كل ما ترتديه تيشرت عادي جدًّا، وجيب جينز عادية بسيطة، وصندل مفتوح واضح انه ليس جديدًا!
فنظرتْ لنفسِها ولمن حولها من زملائها الذين ينظرون إليها بنظرات مستهزئة؛ فتأثّرت وشعرت بالنقص ثم غادرت إلى عملِها بعد الكلّية!

ثمّ عادتْ إلى منزلِها وجلستْ تفكّر في حل ربّما يريحها من تطفّلات زملائها ولكنّه حلّق صعبٌ جدًّا على نفسها؛ ماذا ستفعلُ فالمجتمع لا يرحم الفقير؟
فقرَّرَتْ أن تتغيّب عن الكلية واشترتْ ثوبًا أسودَ جديدًا ثم ذهبت للكلية مرتديةً إياه وعندما سألها زملاؤها أجابتهم بأنّ والدَها توفّي!
كانت مجبرةً لأنّ عيون الناس لا ترحم فقرَها كما أنّها أخفت عن زملائها أنها من سكان العشوائيات..

أخفت حقيقتَها خوفًا من نظرة المجتمع ولذلك أغلقتْ كلَّ الأبواب التي تؤدي إليها إلى أن تعرّفتْ على (محمود) وهو زميل لها، وكانت فى السنة الأخيرة وقد عانت ما عانت لتصل لحُلمها في النهاية، وفي أحد الأيّام صارحها بحبِّه لها وبأنّه يريدُ الارتباط بها..

فتركتهُ وذهبت مسرعةً وهي تبكي قلبَها المذبوح.. لكنّ (محمود) قرّر أن يكتشف أسرارها الغامضة..

فَتَتَبَّعَها وصُدِمَ مما رآه؛ فهو لم يكن يتخيّلُ أنّ هناك حياة كهذه في الواقع وكيف استطاعت (زهرة) أن تخدع الجميع كلَّ تلك الفترة!؟

في يوم التخرّج استوقفها (محمود) قائلًا: "أنا عرفت كلّ حاجة! ليه كدبتِ علينا؟".
فأجابته في صدمة: "أنا كدبت عشان أحمي نفسي من كلامك ده"!

وتركته وغادرت باكيةً..

جلس مع نفسه فوجدها محقة؛ لو كان هو مكانَها لفعل مثلها ثم إنها أرادت أن تنجوَ من مستنقع سقطتْ فيه آلاف الفتيات أن تكون إنسانة ونجحت. ثم لحق بها فاعتذر منها وطلبها للزواج؛ فوافقت وكانت سعيدة بنجاحها وبحبها!"..
فليس كل سكان العشوائيات بلطجية.. هناك أناس صالحون.. هناك الكثيرون والكثيرات مثل (زهرة العشوائيات).

obeikandi.com